المجتمع الليبي في الأدب الشعبي

بحث أعد في إطار مشروع كتاب

المجتمع الليبي خلال الفترة 1835 - 1950

الذي أشرف عليه مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية

وألقي خلال الندوة التي عقدت حول هذا المشروع

في مدينة طرابلس في الفترة من إلى

محتويات البحث

القسم الأول : الأهمية التوثيقية للأدب الشعبي

تقديم :

أولا- الحياة الاجتماعية

ثانيا - الحياة الاقتصادية

ثالثا - الحياة السياسية

رابعا - الحياة الثقافية

القسم الثاني : أمثلة تطبيقية

خاتمة

القسم الأول

الأهمية التوثيقية للأدب الشعبي

تقديم :

بالرغم من أن مسألة توثيق وتسجيل أحداث ومظاهر الحياة الواقعية لا يدخل في صميم وظيفة التعبير الفني والأدبي ، إلا أن هذه النتيجة تأتي وتتحقق دائما على نحو غير مباشر ، وغير مقصود لذاته ، من حيث أن الأديب والفنان المبدع حين يمارس مهمته ، وغالبا ما يكون ذلك بحافز ذاتي محض ، لا يفعل ذلك وهو منعزل عن الواقع الذي ينشأ ويعيش فيه ، ويتلقى من مكوناته وأحداثه وتطوراته مختلف المؤثرات التي تحفز قدرته الإبداعية على التعبير والتسجيل ، فيجد نفسه وهو يعبر عن صدى ما يتلقاه من مؤثرات في نفسه وعواطفه ، يسجل وينقل لمعاصريه الذين يواكبون إبداعه، ويتلقونه منه مباشرة، وإلى الأجيال التي تأتي بعدهم تباعاً، تسجيلاً وتوثيقاً دقيقاً وأميناً لكلما يحفل به ذلك الواقع من تفصيلات وجزئيات وأبعاد ومعان.

من هنا تأتي تلك الأهمية البالغة التي يكتسبها التعبير الأدبي في تسجيل مظاهر الحياة، وتوثيق أحداث التاريخ، على نحو يفوق في كثير من الأحيان، في دقته وأمانته وثراه بالمضامين والمعاني والظلال ، الوثائق التاريخية الأخرى ، التي يرجع إليها عادة كمادة أولى لتدوين أحداث التاريخ.

ولعل هذا الحكم يكون أكثر صدقا حين يتعلق الأمر بالمجتمعات التي تغلب عليها الأمية، ولا تعتمد في حياتها الواقعية العملية على الوثائق

المكتوبة أو المسجلة بأي وسيلة مادية محسوسة ، تكون قابلة للحفظ والبقاء عبر السنين، وقابلة من ثم للرجوع إليها وقراءتها والاعتماد على ما فيها من معلومات أو أحداث تاريخية . في مثل هذه المجتمعات يكون الاعتماد الأكبر، وفي كثير من الأحيان الأوحد ، على الذاكرة وحدها ، كوسيلة لحفظ وتوثيق الوقائع والأحداث ومظاهر الحياة ، ثم على الرواية الشفهية لتناقل ذلك التراث من جيل إلى جيل .

في هذا الوسط ، وبفعل هذا العامل بالذات ، يبرز التعبير الفني والأدبي كوسيلة مميزة مهيأة أفضل تأهيل لأداء هذه المهمة . ذلك أن الأشكال الفنية البديعة التي يصاغ فيها ذلك التعبير ، وبخاصة الشكل الشعري المتميز بتقسيماته وموسيقاه ، تيسر إلى حد كبير مسألة تلقي وحفظ تلك الإبداعات ، وتيسر من ثم تناقلها وتداولها من جيل إلى جيل .

هذا الوصف ينطبق على العديد من المجتمعات قديماً وحديثا.ً والأمثلة على المجتمعات التي قام فيها التعبير الأدبي بهذه المهمة التوثيقية والتأريخية كثيرة وعديدة. قد يفيدنا منها الإشارة إلى المجتمع العربي منذ ما قبل ظهور الإسلام، وحتى قرن أو قرنين بعده، وإلى الدور الذي لعبه الشعر في توثيق حياة العرب في تلك الحقبة، حتى قيل إن "الشعر ديوان العرب"، بمعنى أنه السجل لحياتهم كلها، بتفاصيلها وأبعادها، ثم بأحداثها وتطوراتها المختلفة.

وعلى هذا النمط تماما كان الحال بالنسبة للمجتمع الليبي منذ أقدم الحقب التي حفظت لنا الرواية بعض إبداعات أدبائها وشعرائها وفنانيها ، وحتى الوقت الحاضر . وإذا كانت أهمية التعبير الأدبي التوثيقية والتسجيلية ، قد لقيت في العقود الأخيرة بعض المنافسة من قبل وسائل التسجيل والتوثيق

الحديثة ، سواء تلك المكتوبة أو المصورة أو المسجلة صوتا أو صوتا وصورة، إلا أن ثمة جوانب معينة ، وأبعادا مخصوصة ، من الحياة السياسية والاجتماعية ، لا يمكن الاستغناء عن الآداب والفنون في الإحاطة بها وإدراكها بمختلف صورها وأشكالها .

نعم طوال هذه الحقب التاريخية المتعاقبة كان الأدب الشعبي (وهنا نشير إلى أن حديثنا في هذا البحث يتصل بالأدب الشعبي ، أي الأدب الذي اتخذ من اللهجة الدارجة الليبية وسيلة للتعبير) ، إلى جانب فنون الغناء والموسيقى، هو الوسيلة الوحيدة التي لجأ إليها الناس في تسجيل وتوثيق ومتابعة وقائع حياتهم وتطوراتها ، وتصوير أبعادها ومضامينها وخلفياتها، على نحو يكاد في كثير من الأحيان يفوق ، في دقته وموضوعيته وتنوع مستوياته وأبعاده ، حتى الوثائق المكتوبة أو المصورة التي قد يتصادف وجودها فيما يتصل ببعض الأحداث أو الوقائع التاريخية .

وفي مثل هذا البحث القصير لا يتسع المجال لاستعراض مختلف جوانب هذا الدور الذي لعبه الأدب الشعبي في نقل صورة المجتمع الليبي إلينا عبر العصور والأجيال ، ذلك لأن مثل هذا الاستعراض لن يكون مقنعا في التدليل على ما ندعيه ، إذا لم يكن مؤيدا بما يدعمه من الشواهد والأمثلة المستقاة من فنون هذا الأدب المتنوعة [1]: من قصص وأساطير وحكايات (أو ما نسميه في تعبيرنا الشعبي "خراريف"، جمع "خرّافة"، وهي القصص التي اختصت النساء العجائز بروايتها للصغار لتسليتهم وإنامتهم في ليالي الشتاء الباردة بوجه خاص) ومن أشعار ملقاة أو مغناة ، ومن أمثال سائرة ، ومن أغان خاصة بالمناسبات الاجتماعية وغيرها، ومن أحاجي وألغاز للتندر

والتسلية ...إلخ ، ولكننا سنكتفي بالإشارة السريعة إلى بعض تلك الجوانب التي وجدنا لها أصداء وآثارا في أشكال التعبير الأدبي ، والتي يمكن الاعتماد على هذا الأدب في معرفة الكثير من جوانبها وأبعادها ، وذلك حين يتيسر جمع وتوثيق ما يوجد منه حتى الآن غفلا وضائعا ومشتتا في ذاكرة المسنين من الشيوخ والعجائز.

أولا- الحياة الاجتماعية :

من خلال فنون التعبير الأدبي نستطيع أن نلم بالكثير جدا من أبعاد وملابسات الحياة الاجتماعية . وقد سجلت لنا هذه الفنون تفاصيل ، قد تذهلنا أحيانا ، بما اتسمت به من دقة وشمولية وإحاطة .

ويكفي أن نشير إلى أننا من خلال هذا الأدب نجد تسجيلا دقيقا ومفصلا لمختلف البيئات الاجتماعية التي كانت موجودة في البلاد . فثمة المجتمع البدوي الذي يعيش فيه البدو الرحل القائمة حياتهم على الانتجاع والتنقل بين مواطن الكلأ والماء ، والمعتمدون أساسا على الزراعة وتربية الحيوان . ونجد المجتمع الريفي الزراعي ، الذي يعتمد سكانه على الزراعة المروية ، وخاصة في المناطق الساحلية . ثم نجد إلى جانب هذا المجتمع الحضري ، أو مجتمع المدينة الذي تختلف الحياة فيه اختلافا تاما، من حيث المسكن ونوع الحياة ، وأخيرا نجد صورة المجتمع الريفي الصحراوي ، أو مجتمع واحات النخيل في الصحراء .

عبر أشكال التعبير المختلفة نجد صورة تفصيلية لمناحي الحياة الاجتماعية في كل مجتمع من هذه المجتمعات . أولا من حيث أطوار الحياة المختلفة ، إذ

نجد حياة الصغار وطفولتهم، وألعابهم التي كانوا يتسلون بها [2]، في مواسم الصيف والحر ، وفي مواسم الشتاء والبرد ، ونجد ألعاب الأولاد وألعاب البنات ، وما يردده هؤلاء وأولئك من تعبيرات وأغان . ثم نجد صورة تفصيلية لحياة الشبان ، وما يتفرع عنها من تفصيلات تخص الذكور ، وأخرى تخص الإناث ، ثم ما يتصل بالعلاقات بين الجنسين ، وما ينشأ عن ذلك من تشعبات ، وما يحوط ويحكم تلك العلاقات من تقاليد ومعايير وقيم أخلاقية . ومن خلال أشكال التعبير الأدبي نجد صورا أخرى دقيقة وغنية بالتفاصيل والأبعاد عن مختلف مراحل الحياة : الحياة بين الزوجين ، وفاقا واختلافا ، وبين الآباء والأبناء ، وصولا إلى مراحل الكهولة والشيخوخة ونهاية الحياة .

وكما يسجل لنا هذا الأدب تفاصيل مثيرة عن طبيعة الحياة داخل مجتمع القبيلة والعلاقات بين أفرادها ، فإنه يوثق لنا توثيقا دقيقا مختلف أنماط العلاقات التي تنشأ بين القبائل المختلفة ، سواء في أوقات السلم ، كعلاقات الجوار والمهادنة والتعاون والتكافل وما إليها ، أو في أوقات الحرب ، كعلاقات الصراع[3] والقتال وإنشاء الأحلاف ، وما ينشأ عن ذلك من تداول على مواقع الأرض ، وهجرات متبادلة ، بحسب اختلاف وتطور علاقات القوة بين الأطراف المتصارعة .

من ناحية أخرى نجد في الأدب انعكاسات وأصداء مهمة من الناحية التاريخية للعلاقات بين المجتمعات المختلفة ، فقد كانت طبيعة الحياة وظروف المعيشة ، تحتم تبادل المصالح والمنافع بين البيئات الاقتصادية المختلفة ، فكان البدو يتصلون اتصالا وثيقا بالمجتمعات الريفية في الصحراء ، لحاجتهم لتبادل

محاصيلهم من الغلال ومنتجات الحيوانات، بإنتاج الواحات من التمر [4].
كما كانت مجتمعات البادية والواحات تتصل بالمدينة للحصول على ما في أسواقها من البضائع[5]، وكان سكان المدن يعتمدون في تسويق بضائعهم على سكان البادية والواحات الذين يقدمون إلى المدينة في رحلات منتظمة وثابتة.

كل هذه الجوانب المشار إليها آنفا ، قد يوجد من الوثائق الأخرى ما يسجل أو يوثق بعض أطرافها وجوانبها ، ولكننا حين نتطرق إلى ما كان يحكم تلك الحياة الاجتماعية في البيئات المختلفة التي تحدثنا عنها ، وعبر مراحل تطورها المختلفة ، من تقاليد وقيم أخلاقية وروحية ، فإننا سنكتشف أننا لن نستطيع الاعتماد على غير الأدب في هذا الصدد .

من خلال الأشعار والقصائد وحتى من خلال القصص و"الخراريف"، وأغاني ترقيص الأطفال ، وأحاجي التسلية ، سوف نجد صورة دقيقة وشاملة للمنظومة القيمية التي كانت تحكم حياة الليبيين في فترات التاريخ المتتابعة[6]. نجد صورة عن القيم التي كانت تسير حياة الأفراد : الصفات والشمائل التي ينبغي أن تتحلى بها المرأة [7]، صبية وشابة وزوجة وربة بيت، والصفات والشمائل التي يحسن أن يتحلى بها الرجل ، صبيا وشابا ورجلا عاملا منتجا وفارسا محاربا مدافعا عن المال والعرض والأرض . ثم نجد منظومة أخرى كاملة للقيم والتقاليد التي تحكم الحياة الجماعية ، داخل المجتمع الواحد ، ثم بين المجتمعات المختلفة.

ومن المعروف أن منظومة القيم والتقاليد المرعية ، أو ما يسمى العرف ، ويسمى بالعامية أحيانا "الدربية وجمعها درايب" بمعنى العادات والأعراف ،

هي التي كانت تحكم الحياة الاجتماعية ، داخل القبيلة الواحدة ، ثم بين القبائل بعضها ببعض ، وذلك في غياب أو عدم وجود الدولة والقوانين المكتوبة.

عن هذه المنظومات من القيم والتقاليد والأعراف سوف نجد في الشعر تفصيلات مذهلة في دقتها وعمق تصويرها لطبيعة العقلية أو الذهنية التي كانت سائدة في المجتمعات المتنوعة ، ثم تصويرا مثيرا للتطورات المتتابعة التي دخلت على هذه القيم والتقاليد ، مع تطور الحياة الاجتماعية ، وبروز أنماط مختلفة من العيش ، وتعرض المجتمع الليبي لمؤثرات التغيير الاجتماعي الناشئة عن انتشار التعليم ووسائل الاتصال وغيرها[8].

وسوف يذهلنا أننا من خلال تتبع أشكال التعبير الأدبي ، عبر المراحل التاريخية المختلفة، نستطيع أن نلمس بمنتهى الدقة الظروف التي أدت إلى تلك التغيرات ، والمنعطفات التاريخية التي شهدتها ، وسوف يتمكن الدارسون والباحثون ، من استخلاص الكثير من المعلومات المفيدة عن بداية بروز بعض الظواهر الاجتماعية ، وبداية نشأة بعض الأنماط السلوكية ، وعن اختفاء وظهور بعض العادات والأعراف ، وذلك عن طريق استعراض نماذج التعبير الأدبي في كل مرحلة اجتماعية ، ومقارنتها بغيرها من النماذج التي تسجل ما سبقها وما لحقها من مراحل .

ثانيا ـ الحياة الاقتصادية :

فإذا انتقلنا إلى صورة الحياة الاقتصادية التي يعكسها ويوثقها لنا الأدب الشعبي ، فسوف نجد أشياء مثيرة للإعجاب والدهشة فعلا.

سوف نجد صورة تفصيلية لمختلف مظاهر النشاط الاقتصادي الذي كان يمارسه الناس من أجل العيش . وبالطبع ترتبط هذه الأنماط ارتباطا وثيقا بنوع المجتمع الذي تتم فيه. سوف نجد صورة دقيقة لحياة البدوي القائمة على نمطين اقتصاديين بالتحديد : زراعة الحبوب ، وتربية الحيوان . ونكتشف أن الأدب لم يترك تفصيلا من تفاصيل هذه الأنماط المعيشية إلا وسجلها بمنتهى الدقة : مواسم الحرث وبذر البذور – انتظار وحساب نزول المطر ، وأنماط الغيوث المفيدة وأوقاتها وما يتصل بها من معرفة الأنواء – ثم رعاية الزروع حتى تنضج – ثم الحصاد وما يتبعه من درس الغلال وتذريتها لفرز الحبوب ومن كيلها وتعبئتها في الأكياس انتهاء بتخزينها في "الكوف" و"المطامير" .

وكل ذلك موثق في الأشعار التي كانت في كثير من الحالات تعتبر جزءا حيويا من الأعمال نفسها ، كالأغاني الخاصة المصاحبة للحصاد والدرس ، والتعبيرات المميزة المستخدمة أثناء عملية الكيل وغيرها.

أما عن النمط الاقتصادي الآخر في هذا المجتمع ، وهو تربية الحيوان ، فالتفاصيل والأبعاد لا تكاد تحصى : سوف نجد صورة عن الحيوان الذي كان الناس يربونه (الضأن والإبل أساسا) ، وعن كل من هذين النوعين سنجد معلومات مفيدة عن تغذيتها وتربيتها ورعايتها حتى استثمار منتجاتها من حليب ولحوم وشعر وأصواف وأوبار .

وإذا توغلنا أكثر في عمق الصورة ، سنجد الأدب يسجل لنا تفصيلات أكثر دقة : أوقات وأساليب وطقوس حلب الشياه أو الإبل ، من يقوم بالحلب ، والأواني التي يجمع فيها الحليب ، وتقاليد شرب الحليب وتقديمه

للضيوف ، ووصف الحليب وذكر فوائده . ثم نجد تفصيلات أخرى عن عملية جز الصوف وما يصاحبها من أقوال وأغان .

وسوف نرى أن الأدب الشعبي لم يقتصر فقط على صورة الحيوان وهو سليم معافى ، بل سجل لنا ما يتعرض له من أمراض ، وما يلقاه من عناية ورعاية صحية ، ولعله يكفي في هذا الصدد الإشارة إلى ذلك التراث الغني من الأدب الذي يدور حول تعرض الإبل للجرب ومعاناة أصحابها لمداواتها بالقطران وغيره ، وما يرددونه من أشعار لتسلية الحيوان أثناء تلك العملية الشاقة .

وحين نعرف أهمية الإبل بالنسبة للبدو ، لن يدهشنا غزارة الأدب الذي يتصل بها ، وثراء ذلك الأدب بالتفصيلات والمعاني والأبعاد [9]. فلم يترك هذا الأدب شيئا مما يمكن أن يتعلق بالإبل إلا دونه وسجله بدقة وعمق . وقد يكون ذا دلالة خاصة في هذا الصدد وجود أشكال وأنماط تعبيرية معينة ترتبط كليا بالإبل وملابسات حياتها ، منها : أغاني المداواة من الجرب ، وتسمى أغاني "الطلي" (باعتبار أن المداواة تقوم على حك أجسامها ثم طلائها بالقطران) – أغاني "الترزير" وهي الأغاني التي ينشدها الرجال أثناء سحب الماء من البئر لسقي الإبل ، ثم أغاني الحداء ، وهي التي تنشد أثناء السفر لتسلية الإبل وحثها على مواظبة السير.

وأخيرا لا يمكن أن ننسى ذلك الأدب الغني الذي يتصل ويوثق ما يحدث حول الإبل وبسببها من صراعات بين القبائل ، وما يحكم ذلك من قيم وتقاليد .

حين ننتقل إلى المجتمع الريفي الزراعي ، سوف نجد في الأدب الشعبي صورة وافية عن طبيعة حياة المزارعين المستقرين الذين يزرعون أساسا الخضر والفواكه : بدءا من أنواع المزروعات التي يختصون بزراعتها ، مرورا بأنماط المزارع والحقول ، وأساليب الري ونقل المياه من مصادرها إلى الحقول . ثم نجد صورة عن جني المحاصيل وطرق تسويقها أو نقلها إلى مواطن التسويق في المدن والتجمعات السكانية[10].

ولا يغفل الأدب إيراد صورة دقيقة عن تطور العلاقات الإنتاجية ، بدءا من أنماط ملكية الأرض ، إلى أنماط العمل فيها كالإيجار والمزارعة والمشاركة ونحوها ، وما ينشأ من علاقات بين المزارع وصاحب الأرض .

أما النمط الثالث من أنماط النشاط الاقتصادي ، فهو التجارة . ومن خلال الأدب سوف نتمكن من تكوين صورة تامة عن المجتمعات التي كانت تقوم على هذا النمط من النشاط الاقتصادي . سوف نعرف أنواع البضائع التي تتداول في الأسواق ، وسنعرف مصادرها ، ووسائل جلبها إلى الأسواق ، وسنجد صورة عن الأسواق الدائمة والموسمية ، وسنرى كيف تتم عملية البيع والشراء ، وسنعرف العملة المتداولة ، ومنها نتعرف على المراحل التاريخية المختلفة .

ويسجل لنا الأدب الشعبي مختلف الحرف اليدوية التي ظهرت وشاعت في المجتمعات والمراحل التاريخية المختلفة : سنجد مثلا صورا مفصلة عن الحرفيين المختصين بصناعة مستلزمات الحيوانات ، الحداد الذي يصنع النعل والركاب وسلسلة التقييد ، وصانع السرج واللجام ومختلف الأحزمة ، وصانع العدة والحوية ، وما إلى ذلك . ثم نجد صورة لمختلف الصناعات

المتصلة ببيت الشعر ولوازمه ، والتي تبدأ من عملية غزل الصوف وصبغه ونسجه في مختلف أشكال المفروشات والملبوسات المستخدمة .

وسوف نجد من خلال الأدب صورة عن اختصاص البيئات المختلفة بأنماط معينة من الحرف ، لا توجد في غيرها ، كحرفة صناعة الفحم ، أو عصر الزيتون ، أو تصنيع سعف النخل وليفه على سبيل المثال .

وعلى هامش هذه الأنماط الأساسية من النشاط الاقتصادي ، نرى من خلال الأدب الشعبي صورة مفصلة أيضا عن نمط ، قد يعد ثانويا ، وهو الصيد . وسوف نجد تفصيلات مهمة عن المواد الأساسية لهذا النشاط ، وهي حيوان الغزال والودان ، وطيور الحباري ، وتفصيلات أخرى عن أساليب الصيد وأدواته . وبالطبع ينبغي الالتفات إلى الأدب الخاص بالصيد بالطيور الجارحة ، أو الصقور ، وهو مجال لم يترك الشعراء فيه جزئية إلا تناولوها بالوصف الدقيق المفصل ، حيث نراهم يعطوننا صورة مفصلة عن تربية الصقر وتدريبه على الصيد ، ثم عن علاقته بصاحبه ، وعن تقاليد وأساليب التعامل معه عند استخدامه للصيد ، ثم نراهم يصورون لنا تفاصيل عملية الصيد من بدايتها إلى نهايتها ، أي منذ لحظة إزالة الغطاء عن عيون الصقر ، ثم إطلاقه وراء الفريسة ، ثم أسلوب الصقر في متابعة الفريسة حتى لحظة الانقضاض عليها ، وصورة الفريسة وهي تتهيأ لاستقبال مصييرها ، وصورة الصقر وهو يحمل فريسته ...إلخ .

وبدهي أن يكون الأدب قد غطى في هذا السياق ما يستخدمه العاملون من أدوات للإنتاج ، فلا يمكن أن يكون حديث عن المزارع دون أن يشار إلى البئر الذي يستقي منه الماء مثلا ، وإلى الدلو الذي يستخدمه ، وإلى

الحيوان الذي يعينه في سحب الماء من البئر ، وإلى الساقية التي تسهل على الدابة جر الحبل ورفع الدلو من البئر. هذا فيما يخص الماء الذي يسقى به الزرع ، ونجد بالطبع كل المعدات اللازمة للزراعة نفسها بدءا من المحراث الذي يشقها ، ومرورا بالسواقي التي توزع الماء على أنحائها ، وانتهاء بالمنجل الذي يحصد الزرع الناضج ، حيث نتابع عمليات جمعه ودرسه وتذريته وكيله وتخزينه كما ذكرنا آنفا.

وعلى هذا النحو نجد مختلف الإشارات والتفصيلات عن سائر الحرفيين والصناع : التاجر وميزانه الذي يزن به البضائع ، والحداد وكيره الذي ينفخ به النار التي تلين الحديد ، والنجار ومنشاره ومساميره ، والنساج ومسداه وخيوط نسيجه ...وهكذا .

ومما يتصل بهذا الجانب اتصالا وثيقا الحديث عن حركة الناس وتنقلهم بين المناطق الداخلية ، وبين الوطن والخارج ، ونكتشف أن الأدب الشعبي قد حفظ لنا صورة مفصلة ودقيقة أيضا عن هذا الأمر ، ومن خلاله سنعرف وسائل المواصلات التي استخدمها الناس في تنقلاتهم : من الحمير إلى الخيل والإبل ، وسنتعرف على البيئة التي قيل فيها ذلك الأدب من خلال نوع الدابة التي تستخدم في التنقل ، وسنتابع التطور الذي طرأ على هذا المجال حين نلمس في الشعر أوائل الإشارات إلى دخول المركبات الآلية في الاستعمال ، حين يبدأ ذكر السيارات ، وسنعرف المناطق التي عرفت القطارات والسكك الحديدية ، بل إننا سنعرف من خلال بعض القصائد حتى خطوط سير تلك القطارات علي سبيل المثال ، والمحطات التي كانت تتوقف فيها .

أما السفر في الصحراء فذلك عالم كامل ، خصه الأدب الشعبي بنصيب وافر من اهتمامه ، وشغل منه حيزا كبيرا جدا . ففي تلك المراحل التاريخية التي كانت حركة النشاط الاقتصادي تعتمد على تجارة القوافل عبر الصحراء، كانت الوسيلة المتاحة معظم الوقت هي الإبل ، ونشأ من ثم كل ذلك التراث الأدبي المتصل بالتعامل مع الإبل كوسيلة للنقل والمواصلات ، بدءا من عملية تحميلها بالبضائع ، ثم هيآت مسيرها في قوافل ، ثم أوقات مسيرها وأوقات راحتها ، مرورا بعملية تسليتها وحثها على السير عن طريق الغناء المسمى "الحداء" ، وانتهاء بمشاهد عودتها من الأسفار محملة بالبضائع البديلة ، وتقاليد استقبالها في موطنها الذي انطلقت منه .

ليس هذا فحسب ، فقد سجل لنا الشعر الشعبي خارطة حقيقية ، تبلغ أحيانا في دقتها وتفصيلها حدا يكاد يقترب من دقة وتفصيل الخريطة الجغرافية المصورة . وثمة نماذج معروفة تصف لنا المسار الذي تتبعه القوافل في دروب الصحراء ، وأسماء المواقع التي تتوقف عندها للراحة والتزود بالمياه، وطبيعة الأرض التي تعبرها من صحاري رملية وصحاري ترابية وصخرية، وما تمر به من وديان وهضاب وجبال . وتوجد نماذج أخرى من الأشعار الحديثة نسبيا تصف لنا بدورها الطرق التي تسلكها السيارات وبخاصة الطريق الساحلي الذي يربط شرق البلاد بغربها ، وأسماء المدن والقرى التي يمر بها المسافرون على تلك الطريق .

ثالثا ـ الحياة السياسية :

لا تقل أهمية الأدب الشعبي في تسجيل وتوثيق تطورات الحياة السياسية عنها في بقية المجالات . ونعتقد أن البحث العلمي في هذا الجانب لا يمكنه أن

يستغني عن الاستعانة بالأدب الشعبي كمصدر من أهم مصادره . ذلك أن الباحث سوف يتمكن من خلال نماذج هذا الأدب ، لا من التعرف على الأحداث والوقائع وتطوراتها وحسب ، بل سوف يتمكن من الإحاطة بالعديد من الخلفيات والدوافع الاجتماعية والنفسية التي كانت وراء الأحداث ، والأجواء والملابسات التي أحاطت بها ولاحقت تطوراتها .

من خلال نماذج هذا الأدب وفنونه المختلفة سوف نجد صورة عن طبيعة الحياة السياسية التي كانت سائدة ، بالطبع في المراحل التاريخية التي أمكن توثيق وتدوين النصوص التي أنشئت خلالها ، سواء في المجتمعات الحضرية التي خضعت لسلطان حكومات مستقرة، أو في المجتمعات البدوية التي ظلت تسود فيها إلى وقت جد قريب سلطة القبيلة وأعرافها.

سنجد أصداء مختلفة للحكم التركي وطبيعة العلاقة التي نشأت بين الفئات الحاكمة من أتراك ووطنيين وبين سكان المناطق الريفية والصحراوية، ثم سنعيش لحظة بلحظة فترة الانتقال الدرامي من حكم الأتراك إلى سيطرة المستعمر الإيطالي ، ونمر بكل ما حفلت به مرحلة الاستعمار الإيطالي من أحداث ووقائع وملابسات وتطورات ، ونعايش فترة الصراع بين الدول الاستعمارية الكبري فوق التراب الليبي حتى نهايتها بخروج الطليان واستقرار حكم الإنجليز والفرنسيين ، ونتعايش مع فترة الانتداب البريطاني ومعركة الليبيين من أجل الاستقلال والوحدة ، ونتابع نشأة وملابسات تأسيس وتطور الدولة الليبية في بداية الخمسينيات .

وكما أشرنا منذ قليل ، فإن القيمة الكبرى للأدب الشعبي لا تكمن في توثيق الأحداث نفسها ، بقدر ما تكمن في تسجيل وتصوير ما أحاط بها

من دوافع وملابسات وأبعاد مادية ومعنوية . ولعلنا نكتفي في هذا العرض السريع بالإشارة إلى ما حفظه لنا الأدب الشعبي من صورة دقيقة وافية حافلة بالحرارة العاطفية والمضامين النفسية العميقة لمرحلة الاحتلال الإيطالي للوطن. وإذا كنا من خلال نماذج هذا الأدب سوف نعرف تاريخ الاحتلال وتطور أحداثه أولا بأول ، فإننا سنجد توثيقا صادقا للروح التي كانت سائدة في تلك اللحظة التاريخية : كيف استقبل الليبيون الهجمة الاستعمارية، وكيف اختلفت وتشعبت مواقفهم إزاءها ، بين الخضوع والاستسلام من ناحية، والرفض والمواجهة والمقاومة من ناحية أخرى . بل إننا نجد في بعض النماذج الأدبية الشعبية توثيقا للدور الذي لعبته فئة من المواطنين الذين تورطوا في التعامل مع الإيطاليين حتى قبل الاحتلال الفعلي للبلاد.

ولعل الأدب الشعبي ، وبخاصة من خلال الأشعار المختلفة ، ينفرد عن سائر الوثائق التاريخية في تصوير مختلف جوانب الصورة ، وإعطاء أصداء صادقة عن وجهيها الأبيض والأسود . فمن خلال النصوص الشعرية، وحتى الأغاني القصيرة ، سنجد تسجيلا دقيقا لمختلف الأدوار القذرة وغير المشرفة التي لعبتها فئة من المواطنين لخدمة المستعمر وتنفيذ مخططاته وغاياته، وتسجل لنا هذه الأشعار المهام الرسمية وغير الرسمية التي قام بها هؤلاء ضد أبناء وطنهم، وتنقل لنا صورا مؤثرة مؤلمة لصنوف المعاناة التي لقيها المواطنون على أيدي أبناء جلدتهم ، فمن هؤلاء كان الجلادون ومنفذو الأحكام الجائرة والمشرفون على التعذيب وأعمال السخرة ، وكان المخبرون والخونة[11].

وحين يتجه البحث التاريخي المنهجي لدراسة تلك الحقبة وما حفلت به من ملابسات وتطورات ، سوف يجد في نصوص الأدب الشعبي معينا غزيرا، يفيده فائدة جليلة في الإحاطة الموضوعية بالصراع والجدل السياسي الذي نشأ في مختلف فترات السيطرة الاستعمارية وما بعدها . فثمة نماذج معروفة من الأشعار تسجل لنا ذلك الخلاف الفكري السياسي الذي نشأ بين فئات الليبيين ونخبهم السياسية حول قضية التعامل مع واقع الهيمنة الاستعمارية، وكيف اختلف الليبيون بين دعاة للتهادن والتصالح مع المستعمر ومحاولة التعايش معه ، وبين رافضين للمهادنة وداعين لمواصلة المقاومة والجهاد(12).

أما الجانب الآخر من أهمية الأدب الشعبي في توثيق وتسجيل الحياة السياسية فيتصل بالدور الذي لعبه الأدب ، والشعر منه خاصة ، في القيام بمختلف المهام التي تقوم بها في أوقاتنا الحاضرة أجهزة الإعلام والدعاية . ففي تلك المراحل التي لم تكن قد وجدت بعد أجهزة ووسائل الإعلام ونقل الأخبار وما في حكمها ، كان الشعر هو الذي تولى المهمة ، وقام بها على أكمل وجه . فالشاعر الشعبي كان ، كسلفه القديم شاعر الجاهلية وصدر الإسلام ، هو اللسان الناطق باسم القبيلة ، يمجد رجالها وأخلاقهم ، ويوثق أيامها ومعاركها ، وينقل وجهة نظرها في الأحداث والوقائع ، كما يهاجم أعداءها ويهجوهم ، ويسفه أقوالهم ويردها .

وقام الأدب الشعبي بدور مماثل أيام الاحتلال الإيطالي . وكان من الطريف والأكثر دلالة في هذا الصدد ، اعتراف سلطات الاستعمار بالدور المهم الذي يلعبه الشعر في مثل هذه البيئة البدوية ، حتى أنها لجأت إلى

الاستفادة منه واستثماره لصالحها ، فوجد من الشعراء من يجند نفسه وشعره لمدح الإيطاليين وحكامهم ، وتمجيد انتصاراتهم على المجاهدين من أهل الوطن ، والتمادي أحيانا حتي التورط في تسفيه كفاح المجاهدين ومقاومتهم وتثيط العزائم، عبر الدعوة للاستسلام والخضوع للمستعمر بحجة عدم جدوى المقاومة ورفع السلاح.

وقد تفيد الإشارة إلى أن الذاكرة والوثائق المكتوبة قد حفظت لنا نماذج مهمة وذات دلالات كبيرة في هذا الخصوص ، يأتي في مقدمتها تلك القصائد التي نظمت لمدح "موسوليني" والتي أعدت وأنشئت لاستقباله والاحتفاء به أثناء زيارته وجولته الشهيرة في أنحاء ليبيا .

وبالطبع قام الشعر الشعبي بدوره في توثيق مرحلة ما بعد الحرب ، وما حفلت به من أحداث ومن صراعات سياسية الطابع ، حول الاستقلال ومستقبل الدولة الليبية ونوع الحكومة التي يطمح إليها الناس، وكانت قصائد الشعراء الشعبيين إلى جانب زملائهم شعراء الفصحى وكتاب المقالات في الصحف والمجلات ، هي وسائل التعبير التي نقلت مواقف الناس وأفكارهم حول شتى الموضوعات التي كانت مثار الجدل والنقاش والاختلاف .

رابعا ـ الحياة الثقافية :

من خلال نماذج الأدب الشعبي المتنوعة نستطيع أن نستمد معلومات مفيدة ، وإنارات مهمة ، حول الحياة الثقافية السائدة في كل مرحلة تاريخية. ومن أوائل هذه الإشارات التي تنقلها إلينا الأعمال الأدبية الشعبية ، تلك

المتعلقة بالمستوى التعليمي والثقافي ، حيث نعرف حالة المجتمع من حيث معرفة الناس للقراءة والكتابة ، ومن حيث أنواع العلوم التي تسود في كل مرحلة تاريخية ، وفي مختلف البيئات الاجتماعية ، وسنتمكن من متابعة التطور الذي شهدته الحياة العلمية والثقافية ، حيث سادت في فترات طويلة الثقافة الدينية البحتة ، ثم بدأت تظهر إلى جانبها رويدا رويدا الثقافة العصرية الحديثة ، حتى انقلاب الصورة بسيادة هذه الأخيرة على حساب انحسار تلك بشكل ملحوظ .

وسوف يفيدنا الأدب الشعبي في معرفة المؤسسات التعليمية التي شاعت في البيئات المختلفة ، ونلحظ سيطرة الفقهاء ومحفظي القرآن الكريم في المساجد والكتاتيب ، ونتابع بداية ظهور المدارس المدنية ، وتطورها حتى ظهور الجامعات .

بل إن الشعر الشعبي قد سجل لنا أيضا اتساع طلب العلم ، وخروج الليبيين للدراسة في بلاد الغرب والشرق . وثمة نماذج معروفة توثق لنا هذه الحالات توثيقا مثيرا في دقته وصدقه .

* * *

لم يكن بالطبع من هدفنا ، وليس في الوقت نفسه بوسعنا حتى لو رغبنا، أن نقدم سردا أو حصرا شاملا لكل الموضوعات التي نجد لها أصداء أو انعكاسات في مختلف نماذج الأدب الشعبي ، وإنما أردنا بما أوردناه تقديم فكرة تمثيلية عما يمكن أن يحصل عليه الدارسون والباحثون ، في مجالات التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الليبي ، من معلومات

ذات قيمة علمية كبيرة من خلال التنقيب في نصوص الأدب الشعبي ووثائقه.

إلا أنه يهمنا أن نشير في هذا الصدد إلى إشكالية ، طالما تحدث عنها ونوه بها ، كل من تصدى للتعامل مع التراث الشعبي ، ألا وهي أن كَمًّا ضخما من نصوص هذا التراث ما زال حتى اليوم بعيدا عن متناول الباحث والدارس ، من حيث أنه ما زال في صورة محفوظات في ذاكرة الناس . حقا لقد تمت في الماضي جهود كثيرة لجمع وتوثيق العديد من نصوص هذا التراث الشعبي ، ولكننا ، بحكم خبرتنا ومعرفتنا بهذا المجال ، نزعم أن ما جمع ووثق ويوجد محفوظا بصورة معقولة ، لا يمثل في الحقيقة إلا جزءا صغيرا من الكم الهائل والرصيد الضخم الذي تؤكد الشواهد والأدلة وجوده في ذاكرة الحفاظ والرواة ، ولكنه -كما قلنا- وجود يتسم بناحيتين سلبيتين مهمتين : الأولى كونه بعيدا عن متناول الدارس والباحث ، الذي يحتاج للوصول إليه لبذل جهود شاقة ، في التقصي عن الحفاظ والرواة ومعرفة أماكن وجودهم ، ثم إيجاد السبل للاتصال بهم ، ومحاولة الحصول منهم على ما يروونه ويحفظونه . وحين ننظر إلى مصاعب هذه العملية وعسرها ، يمكننا أن نسلم بسهولة أنها ليست في مقدرة الباحث الفرد ، ومن ثم فهي مهمة شبه مستحيلة . أما الناحية السلبية الثانية فتتمثل في كون هذا الرصيد الموجود في ذاكرة الرواة يتعرض ، لا نقول مع كل يوم يمر ، بل مع كل دقيقة وثانية تمر ، للضياع النهائي ، بسبب ما يتعرض له الرواة ، ومعظمهم من الشيوخ والعجائز الطاعنين في السن ، لضعف وتدهور الذاكرة من ناحية ، وللموت من ناحية أخرى . ولم تتوقف الحوادث عن مفاجأتنا

بالصدمات المتلاحقة ناعية إلينا العديد من الشعراء والرواة الذين كان معروفا أن لديهم مخزونا هائلا من المحفوظات والمرويات ، ولكنه–للأسف– ضاع ودفن معهم، و لم يعد ثمة سبيل للحاق به وتداركه .

ومن هنا فإننا ندق أجراس الخطر ، وننبه بقوة إلى أهمية التعجيل بمحاولة تدارك وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراثنا الشعبي . ولا سبيل إلى ذلك إلا بالقيام بعملية ذات ثلاث شعب أو مراحل:

أولاها : تجنيد فرق العمل ، وإرسالها ، بعد البحث والتقصي ، لجمع ما يوجد في ذاكرة الحفاظ والرواة من ذكريات تاريخية وأعمال أدبية وفنية ، وتوثيقها بطرق التوثيق المتاحة ، صوتا وصورة .

ثانيتها : تصنيف هذه الأعمال وفهرستها وحفظها بالوسائل التقنية الحديثة .

ثالثتها : إتاحتها للباحثين والدارسين عبر نشر نصوصها المحققة والمزودة بالشروح والتعليقات في مطبوعات يمكن تداولها والاطلاع عليها .

وفي تقديرنا أن مهمة كهذه هي نموذج لمهمات البحث العلمي التي تستحق لأهميتها أن تنشأ من أجلها المراكز العلمية المتخصصة ، وأن تفتح أمامها أبواب الدراسة الأكاديمية في الجامعات ، وأن تخصص لها الإمكانات المادية والتقنية اللازمة .

وإنه لمما يثير في نفوسنا الأسف البالغ أن نلاحظ :

1 – أنه حتى هذه اللحظة لا توجد في بلادنا جهة ما [13] مسؤولة عن هذه العملية أو المهمة ، التي لا نبالغ إطلاقا إذا وضعناها في قائمة المهام

ذات الأولوية الوطنية المطلقة . ونحن بالطبع لا نتجاهل الدور العظيم والإنجاز العلمي الهائل الذي اضطلع به مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ولكن في نطاق ما وضع لنفسه من أهداف محددة ، وهي "دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي" . وواضح أننا حين نتحدث عن التراث ، فإننا نعني المصطلح بشتى أبعاده ومشتملاته ، وعبر كل مراحل التاريخ .

2 – أنه حتى هذه اللحظة ما زالت مؤسساتنا العلمية ، والجامعية بصفة خاصة ، لم تعترف بالتراث الشعبي وأهميته ، ومن ثم فلم تره جديرا بأن يكون مجالا للبحث العلمي والدراسة الأكاديمية . وهكذا فلا نجد في بلادنا كلها جامعة أو كلية تقر التراث الشعبي كمادة في مناهجها ومقرراتها ، حتى وإن كان ذلك كمادة ثانوية اختيارية ، ناهيك عن فتح مجال التراث الشعبي أمام طلاب الدراسات العليا ، الذين سوف يجدون في هذا المجال فرصا ثمينة وآفاقا واسعة ، للتمرن على البحث العلمي المنهجي الميداني من ناحية ، ولخدمة تراث بلادهم باعتبارهم الوحيدين المؤهلين لذلك والقادرين عليه ، لأنهم أبناء هذه البيئة التي أنتجت ذلك التراث ، ويمتلكون مفاتيح اللغة الدارجة التي صيغ بها، من ناحية أخرى.

القسم الثاني

أمثلة تطبيقية

لم يسمح ضيق المساحة المحددة لهذا البحث بإيراد أمثلة وشواهد من نصوص الأدب الشعبي التي تدعم وتؤيد ما اشتمل عليه من مزاعم وتأكيدات . ولكننا نورد فيما يلي بعض الأمثلة المختارة ، مما تيسر لنا الاطلاع عليه ، كنماذج لنوع ومدى الفائدة التوثيقية والتسجيلية التي يمكن أن يحصل عليها الباحث من خلال نصوص التراث الشعبي . وسوف نورد في خاتمة البحث قائمة ببعض أهم المصادر والمراجع التي تحتوي نصوصا متنوعة من المأثور الأدبي الشعبي ، لعلها تكون ذات فائدة لمن أراد الاستزادة من الاطلاع والبحث .

في قصيدة خالد رميلة الفاخري التي اشتهرت باسم "براكة الطير" نجد توثيقاً متميزاً لجانب من معاناة الليبيين أثناء الاحتلال الإيطالي، وتنفرد هذه القصيدة بالذات بتوثيق الموقع الذي حشد فيه أولئك المعتقلون، وحشدت فيه حيواناتهم وخاصة الإبل، وهو المكان المعروف باسم "براكة الطير"، وكذلك بتوثيق ما كانوا يلاقونه من معاناة مريرة، من إهانة وتعذيب، في الوقت الذي كانوا يشاهدون بأعينهم ما تلاقيه إبلهم الأثيرة لديهم من معاناة مشابهة . يقول في بعض أبيات القصيدة :

واليوم عند براكة الطير ... جفا يا عراض الجنايب

انتي فيه ما تنظري خير ... وحنا نزمطوا في هزايب

لو كان موتنا جت بتحرير ... معاهم وفي عون طايب

ولا حبسنا وها التقهير	وفقدة مسامي حبايب
مكاتيب مو قل تدبير	فراسين راحوا ذهايب
مرار قطف روس النواوير	خلى الوجه والراس شايب
اللي ما جلا وخش السرير	مشى لوطن ثاني غرايب
والقاعدين تحت التغصوير	وما لهم مع الروم نايب
جزا وحبس ديما وتقهير	وكل يوم وحدين جايب

في قصيدة لعبد الله البويف الدينالي نجد إشارة طريفة توثق ما يعرف أحيانا بالتمهيد الاقتصادي للغزو الإيطالي ، حيث وضعت إيطاليا خطة قام من خلالها بنك روما وفروعه في ليبيا بشراء الأراضي من الليبيين ، وكان لتلك الخطة أثر مهم في دعم الوجود الإيطالي في البلاد ، يشير البويف إلى من يسميهم "خباث الراي" من المواطنين الذين شاركوا على نحو أو آخر في تلك العملية ، ضمن مجموعة من الأبيات تلخص على نحو مذهل ما حدث قبل الاحتلال وإبانه واختلاف مواقف الليبين إزاءه مرورا بتخلي الحكومة التركية وجلائها عن الأرض الليبية تاركة الليبين يواجهون مصيرهم :

وطمعوا عداي الله في خيط العرب

وجنا قناصل جابدات رسوم

وناضوا مزاقط واخذين علي الغضب

وباعوا املاك البادية للروم

والدولة جلت ع الحال والوطن ارتعب

وجنا عساكر دايرات غيوم

وجوها خباث الراي كي صار الطلب

وناضوا وداروا للعين ختوم

والتموا ضنا لجواد عدادة العتب

واستشهد اللي منهم عليه اللوم

وياهم ضنا لجواد في حد التعب

وياهي عليهم دايرة ريسوم

وفي هذا الصدد نفسه يسجل لنا الشاعر فيصل بو غالية معلومة في غاية الأهمية من الناحية التاريخية، تؤيدها وتدعمها الوثائق التاريخية الأخرى كالروايات الشفهية والوثائق الإيطالية ، وهي تلك التي تشير إلى أن أحد الليبيين المتعاونين مع سلطات الاحتلال كان هو صاحب فكرة تهجير القبائل من مواطنها وتجميعها في المعتقلات الجماعية ، لحرمان المجاهدين من خطوط الدعم التي كانوا يعتمدون عليها في قدرتهم على مواصلة المقاومة ، من خلال اللجوء إلى منتجعات القبائل ، والتزود منها ، طوعا أو كرها ، بما يلزمهم من مؤونة وطعام وغيره . يقول بوغالية واصفا ما حل بأولئك المجاهدين من مصير قاس تمثل في فقدانهم المال والوطن وتعرضهم لأنواع العذاب والإهانة المريرة :

ولكن الدنيا عندها تغيير	عليهم دعس هول الزمان ودال
واللي واسعة جتهم بضيق حضير	وقتا تمكن جيش الاحتلال
وجتهم دبارة شوم من تدبير	الخاين المتواطي مع لنذال
في حبس حيزوا في سلوق كبير	وراحن مكاسبهم وراس المال
الا السوط عايل ضرب بتمحوير	والدين في سلاسل من حديد اغلال
على اثر المرض والجوع والتقهير	صغارة رقيق الخط بو شنقال

من زمط العلايل في العيون ضرير   اللي للدنية قبل مو حمال

في هذا الصدد أيضا يسجل مطلع قصيدة للشاعر بن رويلة المعداني، إقدام بعض الليبيين على قبول التجنس بالجنسية الإيطالية ، ويضعهم في مرتبة المرتدين عن الدين:

مبروك عليكم ما درتوا	بعد اخترتوا	خاطيتوا لديان كفرتوا

يتميز من بين الشعراء الشعبيين الذين عكسوا في أشعارهم بعض جوانب معاناة الليبيين من ممارسات الاحتلال الإيطالي ، الشاعر فضيل حسين الشلماني، الذي ينفرد حتى الآن، ونعني في ضوء ما أمكننا الاطلاع عليه من نصوص الشعر الشعبي، بتوثيق مختلف جوانب تجربة المعتقلين الليبيين الذين حكمت عليهم سلطات الاحتلال بالنفي إلى عدد من المعتقلات في الجزر الإيطالية ، فقد كان الشلماني أحد أولئك المنفيين وأنشأ معظم قصائده تعبيرا عن معاناته ، وسجل تجربته المريرة منذ لحظة اعتقاله مرورا بنقله ورفاقه المعتقلين على السفن إلى إيطاليا ، ووصولهم إلى ميناء سيراكوزة في جزيرة صقلية، وكيف استقبلوا ثم رحلوا إلى مختلف المعتقلات بالقطارات، وانتهاء بتجربته من داخل زنزانات وأقبية المعتقل. تكتسب كل قصائد الشلماني في هذا السياق أهمية خاصة ومتميزة باعتبارها الوثائق الوحيدة التي تسجل أبعاد هذه التجربة ، ومع ذلك فإننا نشير منها إلى التفصيلات التالية:

* في إحدى القصائد يصور لنا الشلماني بداية التجربة منذ أن حمل المعتقلون على ظهر السفينة ، ومعاناتهم من ركوب البحر حتى وصولهم إلى "سيراكوزة" ، وكيف أجريت لهم إجراءات الوقاية الصحية من التحميم

وتعقيم الملابس ، ثم كيف وزعت عليهم مستلزماتهم للاستخدام الشخصي، وهيؤوا للنقل إلى المعتقلات المخصصة لهم :

بابورهم عيط يحذر فيا   نوى شيلنا من وطننا العقار
فيه طرحونا في عصير عشية   ولمد مخاطيفة نوى لسفار
وخذ الليل متكاصي بجد ونية   نوى البعد لا حونن ولا محتار
ولا عاد تنظر الا سما وموية   والا حوت يزاقب وموج كبار
داخوا ضنا لجواد من قلبية   عاشوا عصر ما يعرفوا له كار
جابنا علي كوزة عرب روسية   الزين تشكره حتى من الكفار
ع الحال سبحونا عند وان الجية   وحتى الدبش حطوه في مبخار
ولا هناك زول الا بناموسية   ولقيت الصواني دايرات اسطار
وكل نفر منا كلفوه بشيه   ولا عاد منا جار يطلب جار

* في أثناء قصائده يوثق الشلماني التجربة بذكر أسماء بعض المعتقلين، وبخاصة من بين أولئك الذين كانوا في الوطن شخصيات متميزة عالية المكانة، باعتبارهم شيوخ وزعماء قبائل، وباعتبار ما كانوا يعيشون فيه من رفاهية وثراء، مقارنة بما آلوا إليه من مذلة وصغار، وما باتوا يلاقونه من عذاب وإهانة واحتقار. من ذلك قوله في قصيدة :

مصراتة بلادي ، جايين سدادي   ريت السنوسي جبر وسليمان
اركان المجالس، قاعدين كرايس   عازلينهم كي عزلة الجديان

* وقوله في قصيدة أخرى في شكل خطاب إلى أهله في الوطن ، يذكر فيه اسم أحد رفاقه متأسفا للحالة التي يراه عليها ، وينعي إليهم وفاة اثنين آخرين من الرفاق:

يا بعاد ما علمتوا اللي صار عندنا　　　كسوة لعادي فوق من عثمان

لكن ثقيل الروز صابر للقضا　　　مخلي قلوب الخافين رزان

ونثني بعيت رفاد سمحين الوتا　　　مناعة اللي خايف ، ذرا الردان

وقل لهم حسين تعيش لله ما خذا　　　واللي بقي م الحي للفنيان

والساعدي اللافي عالي النقب والنبا　　　ركاب من توالي ساعة الردحان

* ومنها قوله في قصيدة أخرى يذكر عددا من أثرياء وأعيان مدينة بنغازي الذين كانوا يغدقون على المعتقلين بالعطايا والهدايا ، واستحقوا من الشاعر ورفاقه الشكر والتقدير :

طري منصور يصرف ع　　　بجاوي ما يمله قول هات

وبو مخلوف كساي العرايا　　　حتى هناك عز الضايفات

حسن هو زاد له طولة عناية　　　يصرف ما يعد الخاسرات

والحاج رجب كي عد الحطايا　　　اللي معلوم يروي الواردات

والزروق غالبهم كفاية　　　خيرة غير ايامه هالبات

وبوقعيقيص كي بر الوسايا　　　ظهيرة في السنين الكالات

وسليمان هو حد الغوايا　　　ديما هو خلاص الواحلات

روس الكل ما هِمشي ردايا　　　افراع طوال من عالي النبات

ولا يستاهلوا حكم الجنايا　　　ولاهم كار حبس وشيلات

* ومن التفصيلات الطريفة التي يوثقها شعر الشلماني عن معاناة المعتقلين في المنفى، قلة الزاد الذي يوزع عليهم، ورداءة الغذاء، إذ يقول في إحدى القصائد مخاطبا جزيرة "فافنيانا"التي كانوا معتقلين بها :

يا غدارة   يا للي اهاليك الكل نصارى

يا اللي ضنا لجواد فيك فقارى   عايشين غير قريب بالسبحانة

مونتك لهم كسرة تقول حجارة   ومغيرف شريبة ما تجي مليانة

وحبات مكرونة ما يطقن حارة   ويجن قفار ما فيهن غيار دهانة

– في قصيدة طويلة عن الإبل للشاعر عبد المطلب الجماعي، نجد وصفاً تفصيلياً دقيقاً لنوع من أنواع البنادق التي كانت مستعملة في ذلك الوقت (النصف الثاني من القرن التاسع عشر) وهو البندقية المسماة "بوصوانة". ويرجح أن يكون عبد المطلب الجماعي قد انفرد بإيراد مثل هذا الوصف، إذ لم نصادف أي نص آخر يتناول هذا النوع من السلاح بمثل ما تناوله به الجماعي من وصف تفصيلي لأجزاء البندقية، ولكيفية إعدادها للاستخدام، وكيفة التصويب والضرب بها.

–في قصيدة أخرى لعبد المطلب الجماعي نجد البيتين التاليين :

لا لي غرس منبوته سناوي   ولا زيتون معصاره زوى

ولاني من عديمين الفتاوي   نصلي بالتراب حذا الما

وهما بيتان يمكن أن يتخذا مثالا على نمط من الفائدة التوثيقية للشعر، فالبيت الأول يشير إلى النمطين السائدين من النشاط الاقتصادي في ذلك الوقت وهما: زراعة النخيل (الغرس) في الواحات، وزراعة الزيتون وعصره في القرى الفلاحية القائمة على زراعة مثل هذا النوع من الأشجار. أما البيت الثاني فيشير إلى مستوى الوعي الديني الذي كان سائدا، حيث يورد الشاعر حكماً فقهياً يتمثل في عدم جواز التيمم في وجود الماء الصالح والكافي للوضوء.

- في إحدى قصائد خالد رميلة نجد إشارات ذات أهمية توثيقية ملحوظة، إذ تسجل لنا ما يرجح أن يكون اسم حرفي يهودي كان مشهوراً ومختصاً في صناعة أركبة الخيل، كما تسجل لنا اتجاه الأثرياء من شيوخ وزعماء القبائل إلى طلاء الركاب، وربما صناعته من الذهب الخالص، وتشير إلى "حلاس تونسي"، ولعله يكون نوعاً من الأحلسة التي كانت تصنع أو تستورد من تونس :

يجوها علي كل مكروم	مع امه مكمل اسنانه
علي صفحته دق شيلوم	يشيل م الوطاه ختقانه
لذيذ في القدم حلو مقيوم	شبعان م الذهب بالوزانة
وحلاس تونسي لقط مرقوم	تفصيل ندو جادن امزانه

- في بيت ورد ضمن إحدى قصائده يسجل لنا خالد رميلة مستوى الثقافة الدينية التي كانت سائدة في بعض نجوع البادية ، حيث يقول :

وفي نجعنا ما زال لاذان والقرا بالدرس وكلام الله والع فقيرها

- في سياق الاستطراد الذي يلجأ إليه الشعراء الشعبيون عادة في شعرهم الغزلي لوصف الرحلة إلى ديار الحبيب ، ظل لمدة طويلة شائعا الاعتماد في تلك الرحلة الخيالية على الجمل أو الناقة ، كعادة أسلافهم شعراء العرب القدامى ، ولكن مع تطور الزمن ، وحلول وسائل جديدة للمواصلات ، بدأ الشعراء يعتمدون هذه الوسائل ويحلون وصفها محل وصف الرحلة على ظهر الجمل.

عبد الله البويف الديناني في إحدى قصائده الغزلية يتخذ من القطار وسيلته للرحلة إلى ديار الحبيب ، ويورد لنا وصفا لتلك الرحلة متضمنا

الإشارة إلى اثنتين من المحطات التي كان القطار يتوقف عندها في طريقه ، وهما محطة بنغازي ومحطة "سيدي مرعي" بجردينة، التي يواصل بعدها القطار إلى محطته الأخيرة في "سلوق". كل ذلك مرفقا بوصف القطار وأصوات احتكاك عجلاته بحديد السكة وصوت صافرته ...إلخ . يبدأ ذلك الاستطراد بقوله:

الساعة سبعة بالتقييد   مدينة بنغازي خشيت
مباكر نضنا ربع العيد   مقبل للبابور مشيت
لقينا خدام مباجيد   عطونا في ايدينا بوليت
ادردح فوق قضيب حديد   تقول محلاك دالاميت
رواله شل وراي بعيد   سمعنه دوبي كي صبيت
صكيل اجراسه دنقة عيد   علي توصيفه ما بديت
يوزوا فيه وناض يزيد   نصارى ريانين مبيت
الساعة تسعة طقر بليد   "ستسيوني" مرعي طقيت

أما الشاعر عبدالسلام الحر فيورد وصفا بديعا لرحلته التي اشتهرت شهرة واسعة بسيارته "المازدا" الجديدة التي استلمها من الوكيل، بعد أن جهزت وأجريت لها الصيانة اللازمة، ثم انطلق بها في رحلته إلى ديار الحبيب:

ربك منيتنا حققها   طلعت "المازدا" الجديدة
جيت لثابت دار ورقها   وامر لخرين بتسقيدة
في ساعات قضوا ملفقها   فحص وعالة وتكلويدة
قالوا لي مبارك سقها   واحكي شرفها بقصيدة

– من خلال مجموعة المساجلات والقصائد التي تناولت ظاهرة شرب "الشاي"، سواء بالمدح أو بالذم أو بالتصوير التسجيلي، يستطيع الباحث أن يستقي حصيلة ذات قيمة من الإشارات المفيدة في تأصيل وتأطير هذه الظاهرة، من حيث معرفة أماكن ظهورها، وتقاليد إعداد الشاي وشربه، وانعكاسات الظاهرة الاجتماعية والنفسية على الأفراد والمجتمعات. ومع أننا نحيل القارئ، بغية الإحاطة بهذه الأبعاد، إلى الملحق المنشور في ديوان الشعر الشعبي، المجلد الثاني، إلا أننا نود أن نلفت النظر إلى بعض الجزئيات:

* في قصيدة عبد الله مفتاح النفار نجد البيتين التاليين :

خذانا كيفه دون بالطفل كمين مية جيفة

وكم من قلالي يعجبك توصيفه بدين عظامه بيض كيف الهلة

وهما بيتان مفيدان جدا في توثيق ظاهرة اعتماد سكان واحة جالو في تلك المرحلة على جلب الماء من بئر معروف باسم بئر "بالطفل"، يقع على مسافة 40/35 كيلومتراً إلى جنوب الواحة، وكان ماؤه أكثر عذوبة من ماء بئر "القمي" الذي يوجد بالواحة نفسها ، وكان الناس يعتمدون على مائه في الأغراض العملية الأخرى كالطبخ والغسل وما إلى ذلك، بينما كانوا يخصصون ماء "بالطفل" لإعداد الشاي، ويكادون يضنون به ضناً شديداً حتى على أنفسهم، وكانوا يشترون ذلك الماء بالنقود. ومن ناحية أخرى يشير النفار في بيتيه إلى استخدام الجمال في جلب الماء من ذلك البئر، ويذكر الجمال العديدة التي راحت ضحية لذلك العمل، فنفقت على الطريق، و لم يبق منها سوى عظامها البيضاء التي تلمح تحت أشعة الشمس .

* في نفس القصيدة نجد أبياتاً تعكس لنا مدى سيادة الفقه الديني في حياة سكان الواحة في ذلك الوقت ، إذ نرى الشاعر يدين "الشاي" ويتهمه، ويستند من بين ما يستند إليه من مبررات وأسباب إلى كون هذه الظاهرة تعتبر حراما وتعتبر بدعة، وينفي أن يكون ثمة أي مذهب فقهي قد حللها وأباحها، ثم يختم بدعوة غريمه الذي يمدح الشاي ويعدد مزاياه وفضائله للاحتكام إلى القاضي ليفتيهم فيما اختلفوا فيه :

مو محلل فيها   وين هو المذهب هاللي طاريها
يفتح كتابه كان فيه لقيها   باب الشريعة يا عرب نركن له
ان كان هي مبدوعة   خاطي كلام الله هو وشروعه
ما عاد خلت فرش في مربوعة   غير العوايز يفرغن بالسلة
نسال القاضي   كان في كتابه م الزمان الماضي
عيني تبي والقلب ما هو راضي   واللي تبع نفسه ع الهلاك تدله

* وفي الرد على النفار يستند عبد الله العباسي على الخلفية الدينية ذاتها لتأييد حماسته للشاي ، وذكر محاسنه وفضائله ، فيؤكد من ناحية أن شربه حلال و لم يرد أي نهي عنه، بل إنه ليشبهه ، في شدة حرص الناس على شربه في أوقاته المتعارف عليها ، بالصلاة المفروضة التي ينبغي إلا تؤخر عن وقتها :

شربه باهي   ويجلي دراه الكبد تبقى زاهي
حشيشة حلال وما عليها ناهي   يلذ شربها وين الثمن يتعلى
شربه طيب   ولا نقدروا عنا نهار يغيب
ولا عاد في دوره لقيت مريب   باقي مثيل الفرض ما يتخلى

* ويسجل لنا شاعر آخر المرحلة التي طرأ فيها تغيير في طقوس شرب الشاي التي كانت تقضي بصناعته في ثلاثة أدوار، حيث اقتُصِر على دورين فقط ، فيقول:

يا من قب الثالث قبه   واذهب طبه   وجعنه قاصر ع الجبة
من قب الثالث ويريده   عولة هم ونوع تجارة
فقر وضيق الله يزيده   واجعنه مبلي بخسارة
عن نص الطاسة ما يزيده   لا وفَّى لا ثالث داره
فات الوتر وخالف سيده   نقّص م الورد اللي داره
من واسع جاهه تصعيدة   غاضب ربه   ع اللي دار اثنين وصبى

* أما عبد الله البويف فيوثق لنا ، من خلال قصيدتين خصصهما لهذه الظاهرة ، جملة من العادات والتفصيلات التاريخية المتصلة بها، وبخاصة في منطقة سكناه وهي منطقة سهل بنغازي .

إحدى القصيدتين مخصصة بالذات لنقد وجبة "الشاي" التي كانت تُتَناوَل وقت الضحى، وكانت تسمى في تلك المنطقة "شاهي الطقرة". وهي قصيدة تحفل بتفصيلات مهمة تتعلق بحياة المزارعين في منطقة الساحل، وبممارساتهم حين ينـــزلون إلى المدينة لقضاء حوائجهم، ومدى سيطرة عادة شرب الشاي عليهم. يقول البويف:

شاهي الطقرة خرب جاله   ضارب حتى في الرجالة
شاهي الطقرة في الضحوية   ما يقضوا غيره مقضية
حتى اللي في حزامية   يثاغوا م الجوع عياله
يبقن حسار توانيه   يجري ويلمد في عالة

خرب حتى ع الحدار   وين ما يترل يكبر نار
يشحت عالة م التجار   ويشري خبزة م الدلالة
يدق الزوزين وما ثار   وسطل موية م السبالة
شاهي الطقرة يا مشكايا   خرب حتى ع السونابة
دلوين وتبقى سهراية   ودخان وكاغط من يالة
لقدام مشققات حفايا   والكسوة كيف الدربالة

أما القصيدة الثانية فأوردها الشاعر في شكل حوار ساخر بين رجل فقير بائس ، يكسب قوته بمشقة بالغة من صناعة الفحم ، وامرأته المولعة حد العشق والإدمان بشرب الشاي ، والمستعدة للتضحية في سبيله بكل شيء ، ومنها نستطيع استخلاص جملة من المعلومات المفيدة ، كالإشارة إلى البلد الذي كان يستورد عن طريقه الشاي في فترة ما ، وهو مصر ، وكذلك إلى نوع السكر الذي شاع استعماله في تلك الفترة، وهو السكر الذي يصنع في شكل قوالب كبيرة متماسكة ، يكسر منها حسب الحاجة:

شاهي عصرية   ورويحة رطبة بحرية
لوحين حشيشة مصرية   كلا السكر ما به عبرة
دابين العشة مبنية   والله ما ناوى ع الغبرة
شاهي معدول   وبراد مخضب مغسول
وسكر ثلجي مو مبلول   روس ، الواحد هذا كبره
ما عد ناوى ع المهبول   نين يقولوا هذا قبره

– من أندر القصائد ذات القيمة التوثيقية فيما يتصل بطبيعة الأرض والطريق التي كانت تسلكها القوافل في طريقها من واحة جالو إلى تشاد والسودان مرورا بالكفرة ، قصيدة مهمة للشاعر عبد الهادي بوكارة المجبري ، يصف فيها بدقة فائقة تلك الطريق ، ويذكر جميع المحطات التي يمر بها المسافرون ، ويتوقفون عندها للراحة أو للتزود بالماء ، وهي القصيدة التي يقول مطلعها :

مرايف على عيش ناره بعر   في يوم حر   وشيله بعد شوفتي للقمر

ثم يفتتح الشاعر مطلع كل مقطع من مقاطعها تقريبا بذكر أحد المواقع التي يمر بها المسافرون في الطريق، مثل: هامبوه، شكردي، الطليحة، قور البقر، المصلى، الطلاليب، قبر لاليه، الغريد، الترهوني، المتمة، قور الصدر، بشرة الخير، الشريف، البويب، الحطية.

* في قصيدة مطلعها :

ألوه، قول لي ظنك اصحاب الغيرة   ما زال منهم ناس ميجودين؟

ينتقد الشاعر الشريف السعيطي أخلاق وسلوكيات فئة من شباب ورجال مجتمع المدينة (هنا مدينة بنغازي بالتحديد) ، بعيد تأسيس الدولة الليبية أوائل الخمسينيات، ومع بداية بروز بعض مظاهر الازدهار الاقتصادي، مع نشأة ما يمكن أن يسمى طبقة البورجوازية من التجار وكبار الإطارات في الإدارة الحكومية. ويركز السعيطي نقده في ظاهرة تخلي أولئك الشباب والرجال عن الاهتمامات الجادة التي يرى أنها تليق بالرجال، والتفاتهم إلى الاهتمامات التافهة كالذهاب إلى البحر ومشاهدة أفلام السينما وحضور مباريات كرة القدم، ويلخص هذا كله في قوله:

اللي بوه كان يعد قاب الجيرة   ويفك في قضايا بين مختصمين

اليوم ع البحر والسينما تفكيره   وينشد علي ملعب الكورة وين

– على ذكر الدولة الليبية أوائل نشأتها، اكتسبت قصيدتان شعبيتان شهرة واسعة، وتداولهما الناس في كل أنحاء البلاد، وكانتا تلخصان على نحو بديع موقفين تاريخيين ذوي أهمية خاصة: الأول موقف أولئك الليبيين من جيل الأجداد الذين ساهموا مساهمات فعالة في حركة المقاومة والجهاد ضد المستعمر، وبذلوا في ذلك تضحيات جسيمة، ثم حين جلا المستعمر، وحصلت البلاد على الاستقلال، تم تجاهلهم بالكامل، و لم يلتفت إليهم أحد. وقد لخص أحد الشعراء موقف هؤلاء في قصيدة مطلعها :

الغرسة اللي ساقيينها بدمانا   وين اثمرت ما شي منها جانا

مشبها الحرية والاستقلال بالغرسة "هي فسيل النخيل"، التي غرسها الآباء ورووها بدمائهم، فلما أثمرت الحرية والاستقلال، استولى آخرون على ثمارها.

أما الموقف الثاني فهو موقف الغالبية العظمى من الليبيين الذين ظلت حياتهم مدة طويلة تراوح في مواقع الفقر والحاجة، في الوقت الذي بدأت فيه مظاهر الازدهار والثراء والترف تظهر على طبقة كبار موظفي الدولة والمتصلين بهم من كبار التجار والمقاولين وغيرهم، وبخاصة بعد ظهور النفط وبداية الحديث عن مداخيله الهائلة من النقود التي ظلت تلك الغالبية من الناس تسمع عن أخبارها –كما يقول الشاعر– على صفحات الجرائد، ولكنهم لا يرون في واقع حياتهم من آثارها شيئاً. وقد لخص الشاعر الموقف كله في مطلع يقول:

وين ثروة البترول يا سمسارة   اللي ع الجرايد نسمعوا باخباره

– في مطلعٍ، اكتسب من بعد شهرة واسعة، للشاعر إبراهيم بوصوكاية الفاخري، نجد توثيقاً مهماً للمرحلة التي شهدت تغير الحال بالإبل، وبداية انحسار دورها المهم الذي كانت تلعبه في حياة البادية وأهل الصحراء؛ ذلك التغير الذي يلخصه الشاعر بتعبيره عن أسفه لرؤية الإبل وهي تُحمَل على السيارات، بعد أن كانت هي التي تَحمِل الناس والأحمال:

شايلينك وانتي اللي شيالة   هذي الدنيا كل يوم بحالة

وقد وجد المعنى الذي عبر عنه هذا البيت أصداء واسعة في نفوس من عايشوا الإبل وعرفوا أفضالها ومكانتها عند البدو وسكان الصحراء، ومن ثم فقد نظم على منواله العديد من الشعراء ، كان من أبرزهم وأبرعهم في تصوير الإبل وتوثيق عدد كبير من الجزئيات المتصلة بها وبحياتها وعلاقتها بأصحابها ، الشاعر الفاخري أيضا إبراهيم بوجلاوي□ ، الذي نشير من قصيدته، علي سبيل التمثيل، إلى الجوانب التالية :

* توثيقه لظاهرة قيام النساء بحلب النوق، وتقاليد تقديم الحليب إلى الضيوف، والإشارة إلى ظاهرة قيام الشبان صغار السن الذين لا يريدون أن يشربوا بغطس أحدهم طرف إصبعه الخمصر في الإناء إشارة إلى عدم رغبته في الشرب:

ثديانك غلاظ وهش فيد سواره   بو رطل ميزانه ضبح دلاله

خشت على خطارها فطارة   في رفة اللي واسعات ارجاله

فيهم اللي قرطع وخير دبارة   ابليس ابعده والقاسمة تاتاله

وفيهم اللي ما زال في تياره   غطس خنيصره ريت الصغير هباله

* توثيقه لحالة أهالي النجع الذين يترقبون عودة الإبل من سفرها لإحضار الزاد والمؤونة، والتقليد الذي كان شائعا في بعض المناطق، حيث يتحلقون حول "التقاز" أو المنجم الذي يحاول أن يستطلع الغيب بطريقة "لف المغزل"، وقراءة الوضع الذي ينتهي عليه عند توقفه عن الدوران، حيث لهم في ذلك حالات من التفاؤل والتشاؤم يعرفونها. ويصور بوجلاوي في الوقت نفسه ما يحدث من انفجار الفرحة والبهجة برؤية طلائع القافلة التي تلوح عائدة من بعيد:

يا سماح التوقة	بحمولك ونجعك ضايقات خلوقه

كبايا علي التقاز راسم سوقه	وما زال حاير مبرم الغزالة

زغرت نظيف الناب تقتي بوقة	طراطيش لاقوك الفريق عياله

* توثيقه لتقاليد استقبال القافلة العائدة من السفر، حيث تعارفوا على أن يطلق أحد المسافرين مع القافلة إطلاقة من بندقيته حالما تلوح لهم بيوت النجع، وأن تجيبه إحدى نساء النجع بإطلاق زعرودة. وقد تعارفوا على أن الإطلاقة من جانب القافلة تعني أن جميع الرجال الذين رحلوا معها قد عادوا سالمين، و لم يتخلف منهم أحد، وعلى أن الزغرودة من جانب النجع إشارة إلى أنه لم يمت أحد من أبناء النجع أثناء غياب القافلة. وهكذا فإذا لم تسمع الإطلاقة من هذا الجانب، أو لم تسمع الزغرودة من الجانب الآخر، فإنهم يفهمون بأن أحد أبناء النجع قد توفي:

منين ما لفت فرغ اللي حاذاها	نظار الفريق يحقها عنقالة

وصبت اللي صافي حرير رداها	تصلها كما صلة جرس ولالة

* توثيقه لفكرة تكريس أو تخصيص بعض الفحول لغرض "الفحولة"، أي تلقيح نوق القطيع في موسم التزاوج، ومن ثم إعفاء مثل هذا الفحل من التسخير للأعمال التي كانت تسخر لها الجمال العادية، ويذكر منها الشاعر بالتحديد: حمل الأثقال، درس الحبوب، سحب الماء من الآبار، جر المحراث:

يا مردوعة	يا منسلة م اللي كبار ضلوعه
مسنود غاربه ما تحق فيه قطوعة	لا شاب من ضلفة كتب نزالة
ولا حط حباسة علي مرقوعة	ولا كر من منهل طوال حباله
ولا امراد متنه برم بصروعه	ولا جر سكة ع الوطا هيالة

* توثيقه لبعض الأعراف التي كانت سائدة لدى البدو، حيث تدفع ديات القتلى من الإبل، وحيث يؤخذ عدد من الإبل (يقول الشاعر إنه عشرة من الإبل تنتقى انتقاء) تعويضا لحالات العدوان عليها:

واللي ينقتل تديه بالمدفوعة	انتي تشجعي ما معاكشي ذلالة
ايام والزمان زمان فيها نوعة	وطيتك بعشرة لقط مي من يالة

* توثيقه لبعض التفصيلات المتصلة بموسم التزاوج، من حيث توقيته (موسم الخريف)، وظهور علامات التهيؤ للتلقيح على النوق، وموقف النوق من الفحل، إذ تقدم النوق "المجاسير" على الفحل وتطلب الضراب، وتتوقف النوق "المتشككة" في حدوث الحمل حائرة بين الإقدام على الفحل أو الابتعاد عنه:

يا عنقادة	علي دير بيضا تربته سنادة
عليه ظهرك وداد له ودادة	خشوش الخريف ومزنته خيالة
تقاوى جسارك ع الفحل حشادة	وين ما هجم تبقي كما اللي خالة

الحيل مجاسيرك يجن هدادة وتحير المشبه دوبها ترعى له

* توثيقه لموعد ورود الإبل بعد موسم التعطيش، إذ يحدده باليوم الثاني عشر من شهر الصيف، وتوثيقه للمعطن الذي تورد إليه الإبل، وهو هنا معطن"بلغرب" الشهير في سلوق، حيث اتفقت القبائل القاطنة في المنطقة على تقنين الورود على المعطن وتقسيم الماء فيما بينها، فخصص يومان في الأسبوع لكل قبيلة، ثم تبرعت قبيلتان باليوم الباقي من أيام الأسبوع لقبيلة الفواخر نظرا لكثرة إبلهم وحاجتهم للماء :

تردي منهلك ضمة الوطن لكوفه

اطناش ف الشهر ثاني الصيف هلاله

كسرتي مع خوتك نصيب صفوفة

معطان بلغرب ما هو عليك عتالة

جدك خذا يومين ضرب صفوفة

والثالث عطي لك م الصديق نزالة

* * *

خاتمة :

كانت هذه بعض الأمثلة، اتخذناها إشارة سريعة لملامح من قيمة الأدب الشعبي في تصوير وتوثيق مختلف جوانب الحياة في المجتمع. ونصوص التراث الأدبي الشعبي معين خصب غزير، ينتظر من يتجه لينهل منه ويتزود. غير أنه، كما بات من غير العملي وغير الممكن في الوقت ذاته أن يتجه كل من يريد الشرب إلى منهل الماء، ويبحث له عن دلو وحبل ليستخرج الماء من

أعماق البئر ، وباتت تتكفل جهات الخدمة العامة للقيام بكل تلك المهام الأولية، وإيصال الماء إلى كل من يريد أن يشرب حتى بيته، فنحن نتصور أن النهل من معين الأدب الشعبي هو أمر غير بعيد عن هذا . فلا بد أن تتولى جهة عامة ما إنجاز المهام الأولية اللازمة لإتاحة الأدب الشعبي في متناول القراء والدارسين والباحثين . ونحن واثقون من أن المحصلة عندئذ ستكون مذهلة في نتائجها، وعظيمة في ثمارها.

□

الهوامش:

(1) في القسم الثاني من هذا البحث أوردنا بعض النماذج على سبيل التمثيل لطبيعة ومدى القيمة التوثيقية لبعض النصوص الشعرية . ونحث القراء والباحثين على الرجوع إلى مختلف النصوص التي سبق جمعها ونشرها، لإعادة قراءتها من هذا المنظور التوثيقي التسجيلي، إلى جانب تأمل ما تحتويه من قيمة فنية تعبيرية.

(2) من أطرف الإشارات إلى مثل هذه الألعاب ما ورد في صورة فنية جميلة يشبه فيها الشاعر إبراهيم بو جلاوي صورة خف الناقة وهو يلامس الأرض أو الرمل، بطريقة ملامسة كف الكبير، رجلا كان أو امرأة، لكف الطفل الصغير، وهو يلاعبه اللعبة المعروفة باسم "الدباخ" أو "الدباخة". يقول بوجلاوي مخاطبا الناقة: "وبحثة كراعك لعبة الدباخة". ورد وصف لهذه اللعبة التي ذكرت تحت اسم "طباخ" في كتاب "الألعاب الشعبية في الصحراء" لمحمد سعيد القشاط، منشورات دار الملتقى للطباعة والنشر، ط1، قبرص، 1998، ص29.

(3) لعل من أبرز هذه الجوانب التي يوثقها لنا الشعر الشعبي ظاهرة العدوان والسلب التي تسمى "الغزي"، وكانت عبر حقب طويلة من الزمن تعتبر ظاهرة طبيعية، وباتت جزءاً لا يتجزأ من حياة البدو، لدرجة أن الشعراء اتخذوا منها أداة فنية يستثمرونها في أشعارهم العاطفية، وبخاصة حين يتجهون لتعزية أنفسهم على فقدان الحبيب، وبات الاستطراد لوصف عملية "الغزي" كثير الشيوع في أشعارهم، وصاروا يتفننون فيه أفانين مختلفة، ويجدون فيه مجالاً خصباً للإبداع في الوصف والسرد القصصي. راجع على سبيل المثال النموذج المتضمن في قصيدة "ذيبلني سود ميامية" لعبد الله البويف الدينالي، في كتاب: عبد الله البويف الدينالي، ديوان ودراسة نقدية، للدكتور يونس فنوش، ص 168-179.

(4) انظر قول خالد رميلة :

وان صار التزاح وولن فراغ القرب   تمد دلوها وترد بتراب طينها

تحوم حومة الجليد ف ايدين من لعب   بها نلمسوا فزان ويجي عجينها

في قصيدة له بعنوان "ما هي اللي تنهان" منشورة في: ديوان خالد رميلة الفاخري، شرح وتحقيق د.يونس فنوش وآخرين ، منشورات الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، بنغازي، 1999، ص79.

(5) انظر قول عبد السلام الحر في سياق إحدى غزلياته، مشيراً إلى نوعين من البضائع التي كان البادية يشترونها من أسواق المدينة (هنا مدينة بنغازي)، وهما: الرداء النسائي، والحلي الذهبية والفضية:

ان لبست رفيع السوم من بنغازي حصيري وبو ثومة شقي دقاقه

في قصيدة "مازال في غنداقه" ، من تسجيل بصوت الشاعر .

(6) يعتبر هذا الموضوع من أهم الموضوعات التي كرس لها الشعراء جل أشعارهم، فهو المحور الذي تدور عليه أشعارهم في أبواب: الحكمة والمدح والهجاء والفخر وفي باب الحماسة وشعر الحرب. وفي تقديرنا أنه جدير بأن يكون مادة لدراسة علمية، أو أطروحة لنيل إجازة في الدارسات العليا. وسوف يكون من الممتع والمثير جدا إجراء دراسة مقارنة بين منظومة القيم الأخلاقية في المجتمع الليبي وغيره من المجتمعات العربية في القديم والحديث.

(7) لعل من أكثر هذه الشمائل دلالة على مدى ترسخ قيمة الكرم في مجتمعات البادية، قيام المرأة، ولو كانت فتاة شابة، باستقبال الضيوف وأداء كل واجبات الضيافة، إلى حين حضور الرجال. وهذا هو المعنى الذي يشير إليه الشاعر سعيد شلبي بقوله يمدح قومه :

وهل بنت تعزم لا لفوا طرقية وهل رحل ديما للعفا بدادي

انظر قصيدته بعنوان "الناب طالبة" في: ديوان الشعر الشعبي، مجلد 1، ط4، ص199.

أما الشاعر حسين لحلافي فيشمل بصفة الكرم في بيت واحد كل أهل البيت من الرجل والزوجة والأولاد والبنات، إذ يقول إنهم جميعا يهشون لرؤية الضيف ويسرعون جميعهم لملاقاته والترحيب به :

يلاقوه يجاروا الكل وشناته ملاقاة صاحب جا بعد تغييبه

اجواد كيف مولى البيت كي مولاته   كيف الضنا في الجود كي العزيبة

انظر قصيدة لحلافي في: ديوان الشعر الشعبي، مجلد1، ط4، ص240 .

(8) سيكون من الطريف في هذا الصدد تتبع مظاهر التغير الاجتماعي التي اتصلت بحياة المرأة في مجتمع المدينة، بين مرحلة الحجاب الكامل، حيث كانت الأنثى حالما تبلغ سن الحجاب، تمسك في البيت، ولا تبقى لها صلة بالعالم الخارجي إلا من خلال النظر عبر النافذة أو عبر باب البيت الموارب، وبين مرحلة الحرية التي بلغت حد إقدام الفتاة على إقامة علاقة مع الفتى ، والجرأة على الالتقاء به خارج البيت، وهي الصورة التي مثلها الشاعر عبدالله بالروين في قصيدته التي مطلعها :

نا و بوخجل يا طول يا ما جينا   حذاك يا بحر ع الهول واشاكينا

ومنها يقول :

يا طول ما جلنا لك   ويا ما جلسنا في نظاف رمالك

ويا ما حكينا ع الغرام قبالك   سهاري تحول م القلوب غبينة

مع حس موجاتك وهي تشالك   تزاحى علي طول النظر وتجينا

من تسجيل بصوت الشاعر على شريط مسموع .

(9) في كتاب لنا مخطوط، نأمل التمكن من طباعته قريبا، قمنا بدراسة تحليلية مفصلة لصورة "الإبل" كما يعكسها لنا الشعر الشعبي في ليبيا.

(10) من أطرف الإشارات في هذا السياق قول أحد الشعراء :

لا نا عقول ذراري   ولا هو حمار الليل بينا ساري

حيث يستمد صورته الفنية من صورة "حمار الليل"، ويقصد به الحمار الذي كان يجر عربة المزارع المحملة بالخضر إلى حيث يوجد السوق، وكانت عادة المزارعين أن يحملوا العربة ثم يستلقوا على ظهرها لأخذ قسط من النوم، ويتركون الحمار يقودها إلى السوق، بحكم خبرته الطويلة بالطريق. انظر البيت في قصيدة عبدالواحد الجنجان، المنشورة في كتاب: قصائد الجهاد، الجزء الأول، إعداد: سعيد الحنديري وسالم الكبتي، منشورات جامعة الفاتح، ط1، ص147.

(11) لعل من أبدع ما ورد في هذا السياق الصور المؤثرة التي حفلت بها قصيدة رجب بوحويش عن معتقل العقيلة ، والتي اشتهرت باسم "ما بي مرض" ، ومن أكثرها تأثيرا قوله في أحد مقاطعها :

ما بي مرض غير حبس المسامي وميحة ايامي و"كابو" علي ضرب لجواد

يصبي يناديك بلسان حامي ولغوة هزيلة تخاف يعدمك قبل لا تشتكي له

وشوخة ردي لصل شوت منامي حتى وهوعزيلة يبيعك علي شان حاجة قليلة

ومعروف أن المقصود بـــ"الكابو" (كلمة إيطالية تعني: رئيس) المجند الليبي المسؤول عن التعامل المباشر مع المعتقلين. وثابت تاريخيا أن بعض هؤلاء الليبيين كانوا يكلفون بأكثر المهام قذارة ودناءة، كمهام التعذيب وتنفيذ أحكام الشنق والجلد وأعمال السخرة وغيرها.

(12) من أبرز الأمثلة على هذا تلك المساجلة الشهيرة التي عرفت باسم "مبعوثان" من مطلع أنشأه أحد الشعراء ساخرا من الليبيين الذين تصالحوا مع سلطات الاحتلال، وقبلوا العمل في ما يشبه البرلمان المحلي ، يقول فيه :

مبعوثان وشيخ مشايخ ديا كايخ يكمل غير وكال طبايخ

ثم تشعب القول بين مؤيد لهذا الموقف ومناهض له، وأثمر ملحمة ذات قيمة أدبية وتاريخية كبيرة، تستحق بدورها أن تكون موضوعا لبحث شيق. وهي للأسف ما تزال مطوية في محفوظات الأفراد، و لم تنشر بعد، بسبب التحرج مما فيها من النقد الموجه لأشخاص معروفين بأسمائهم .

(13) الجهة العلمية الوحيدة التي حاولت القيام بهذه المهمة هي "لجنة جمع التراث" التي أنشئت في كلية الآداب بجامعة قاريونس حوالي عام 1972، والتي استمرت في عملها حتى عام 1976، حيث توقفت عن العمل، و لم يستحدث بديل عنها بعد ذلك، لا في جامعة قاريونس، ولا في غيرها من الجامعات. وقد أعلن في عام 1997 عن تأسيس "المركز الوطني للمأثورات الشعبية"، وعلم أنه اتخذ له مقرا في مدينة سبها، ولكنه ظل محدود النشاط حتى الآن .

(14) انظر نص القصيدة في ديوان الشعر الشعبي ، مجلد 1 ، ص 84-85 .

(15) انظر القصيدة في كتاب : عبد الله البويف الدينالي ، ديوان ودراسة نقدية، للدكتور يونس فنوش ، منشورات مكتبة التراث الشعبي ، ط 1 ، بنغازي 1999 ، ص 122 .

(16) الأبيات من قصيدة مغناة مسجلة بصوت الشاعر ، من وثائق مكتبة التراث الشعبي .

(17) ورد ذكر هذا المطلع في نبذة عن الشاعر نشرت في : ديوان الشعر الشعبي ، مجلد 1 ، ط 4 ، ص 111 .

(18) راجع ديوان الشلماني، تحقيق وشرح: الدكتور يونس فنوش والهمالي شعيب الحضيري، منشورات مجلس تنمية الإبداع الثقافي، بنغازي، 2004.

(19) انظر المقطع الأول من القصيدة في: ديوان الشعر الشعبي، مجلد 1، إعداد لجنة جمع التراث، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1977، ص32.

(20) انظر الأبيات في بداية القصيدة في ديوان الشعر الشعبي ، مجلد 1 ، ص 44.

(21) قصيدة "للقود حق" ، ديوان الشعر الشعبي ، مجلد 1 ، ص 89-90 .

(22) انظر قصيدة "حنا حقها نعطوه" في : ديوان الشعر الشعبي ، مجلد 1 ، ص 94 .

(23) انظر الأبيات في قصيدته "سود الهذب" في كتاب " عبد الله البويف الدينالي، ديوان ودراسة نقدية " للدكتور يونس عمر فنوش ، منشورات مكتبة التراث الشعبي ، بنغازي 1999 ، ص 159 .

(24) الأبيات من قصيدة من وزن "الطبيلة"مسجلة بصوت الشاعر .

(25) انظر نص القصيدة في : ديوان الشعر الشعبي ، مجلد 2 ، منشورات جامعة قاريونس ، ط 1 ، بنغازي 1993 ، ص342 .

(26) المصدر نفسه، ص 343 .

(27) انظر رد عبد الله العباسي على عبد الله مفتاح في :ديوان الشعر الشعبي ، مجلد 2 ، ص 344 .

(28) هو الشاعر رجب بوحويش المنفي. راجع أبياته في: ديوان الشعر الشعبي، مجلد 2، ص346 .

(29) انظر نصيهما في كتاب الدكتور يونس فنوش: عبد الله البويف الدينالي، ديوان ودراسة نقدية، ص 192-199.

(30) انظر نص القصيدة في : ديوان الشعر الشعبي ، مجلد 2 ، ص 232-235.

(31) القصيدة من وثائقي الخاصة، دونتها من رواية الحاج طاهر محمد البشاري، وكان صديقا للشاعر.

(32) هو الشاعر بلقاسم حفتر .

(33) هو الشاعر جعفر الحبوني .

(34) راجع أبيات بوصوكاية ، وقصيدة بوجلاوي ، وقصيدة أخرى نظمت على نفس المطلع للشاعر محمد الهروج حمودة في : كتاب الشعر الشعبي ، جمع وتقديم د.علي محمد برهانة، منشورات المركز الوطني للمأثورات الشعبية، ط 1 ، سبها 1998 ، ص 86-101 .

ثبت ببعض المصادر والمراجع :

وإتماما للفائدة فإننا نورد فيما يلي كشفا موجزا بأهم المصادر والمراجع التي يمكن أن يستفيد بالاطلاع عليها من يهمه هذا المجال :

1- لجنة جمع التراث-كلية الآداب: ديوان الشعر الشعبي، مجلد 1، منشورات جامعة قاريونس، ط4، بنغازي 1999.

2- د.علي الساحلي وسالم الكبتي: ديوان الشعر الشعبي، مجلد2، منشورات جامعة قاريونس، ط1، بنغازي، 1993 .

3- سعيد الحنديري وسالم الكبتي: قصائد الجهاد، ج1، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، 1984 .

4- د.علي محمد برهانة:كتاب الشعر الشعبي، مجلد 1، منشورات المركز الوطني للمأثورات الشعبية، سبها 1998.

5- د.يونس فنوش وآخرون : ديوان خالد رميلة الفاخري ، منشورات الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ط 1 ، بنغازي 1999.

6- د.يونس فنوش : عبد الله البويف الدينالي ، ديوان ودراسة نقدية ، منشورات مكتبة التراث الشعبي ، ط 1 ، بنغازي 1999.

7- عبد السلام إبراهيم قادربوه :

- أغنيات من بلادي ، دراسة في الأغنية الشعبية ، مطبعة سميا ، بيروت 1974 .

- مقاعد أصحاب الصوب ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ط 1 ، بنغازي 1998 .

8- أحمد النويري :

- من تراث الشعب دار لبنان للطباعة والنشر، ط 1 ، بيروت 1974 .

- حضور المرأة الليبية في المأثور الشعبي ، 1990 .

9- محمد سعيد القشاط :

- الأدب الشعبي في ليبيا، مطابع دار لبنان للطباعة والنشر ، 1968.

- صدى الجهاد الليبي في الأدب الشعبي ، دار لبنان للطباعة والنشر ، بيروت .1970

- الإبل وحضارة الصحراء ، دار الملتقى للطباعة والنشر ، ط 1 ، بيروت . 1998

10- عبد ربه الغناي : دراسات في الأدب الشعبي (3) أجزاء ، مكتبة الأندلس ، بنغازي .1968

11- صلاح الدين جبريل : تجريدة حبيب ، مكتبة قورينا للنشر والتوزيع ، بنغازي 1974 .

12- سالم العبار : مقالات في التراث الشعبي ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس 1982 .

13- محمد عبد الرازق مناع : الشريف السعيطي ، شاعر وديوان ، ط 1 ، (ب ت) .

14- حسين نصيب المالكي : شاعر معتقل العقيلة (رجب بوحويش) ، بنغازي 1992 .

15- عمر بلعيد المزوغي :

- قراءات وتأملات في الثقافة الشعبية ، القاهرة 1973 .

- عروس الريف ، دراسة لبعض مظاهر المأثورات الشعبية ، دار العالم العربي، القاهرة، 1974.

16- عياد موسى العوامي : أغاني العلم ، دراسة في الأدب الشعبي الليبي ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس 1978 .